

النشاط السياسي لدى الجيل الجديد من فلسطينيي المنفى

ماهر بيطار

من الضروري أن لا ننع في شرك اعتبار الفلسطينيين، على الرغم من فترات النزوح والتشرد المطولة، فئة مستضعفة وعديمة الحول والقوة في المأساة التي يعيشونها.

على النقيض من معظم أشكال الهجرة واللجوء الأخرى، لا تُعتبر حالات الاضطهاد الفردي أو ظروف الوطن الأم السبب في بقاء الفلسطينيين لفترات مطولة في المنفى حيث تعود الأسباب إلى تفكك واختفاء أي كيان سياسي مُعترف به دولياً ينتمي إليه الفلسطينيون. ورغم ذلك، كانت التجربة الفلسطينية في النزوح الطويل تجربة ناجحة على صعيد 'مشاركة اللاجئين'، حيث سعى اللاجئون - باعتبارهم جزءاً من أمة قومية نازحة - على امتداد عقود إلى التغلب على ظروف الحرمان وتحدي ثغرات الحماية وتضمين مصالحهم في المفاوضات السياسية التي تؤثر على مستقبلهم.

إلا أننا نجد الآن، وبعد أكثر من ٦٠ عاماً من تحول آبائهم وأجدادهم إلى لاجئين عديمي الجنسية، جيلاً جديداً من الفلسطينيين نشأ في عصر يسوده سياق سياسي وثقافي شديد الاختلاف ويواجهون تحديات مروعة.

فمع استمرار الاحتلال العسكري الإسرائيلي ومطامحه التوسعية إلى جانب التمييز العنصري المتأصل والتهميش الذي يلاقونه في بلاد المنفى، بدأ الشباب الفلسطيني السير في عملية تعبئة سياسية في مسعى منه لمقاومة الضغوط الشديدة التي تسببها ثلاث قوى طويلة الأمد ومتفاقمة: أولاً، مناخ الاضطراب والقلق الذي ساد أجيالاً متعاقبة والذي تفتحت أعينهم عليه منذ ولادتهم؛ ثانياً، حالة التمزق والتشتت في أنحاء العالم والتي عانى منها مجتمعهم؛ ثالثاً، حالة الفراغ السياسي التي خلفها التفكك البطيء لحركة وطنية فلسطينية ذات إطلالة عالمية.

يعتمد الفلسطينيون المنتمبون إلى جيلي إلى إعادة تخيل الدور الذي يمكن أن يلعبه كل منهم ضمن كيان سياسي فلسطيني، وذلك مرة كلاجئين ومرة كأفراد من الشعب الفلسطيني. ويدلنا الحديث معهم على وجود ملامح 'إعادة إحياء لوعي اللاجئين' وذلك بشكل ذكي ثقافياً وسياسياً، مدموجاً في قومية فلسطينية أكثر إصراراً على تأكيد الذات، وكذلك على وجود تحول تدريجي بعيداً عن العمل السياسي القائم على 'التضامن' - وهو

شكل من أشكال المشاركة السياسية التي فصلت الفلسطينيين من 'الخارج' عن الفلسطينيين من 'الداخل'. ولوعيمهم القوي بالآثار المدمرة للنزوح الطويل والتشتت الجغرافي والتهميش السياسي على مجتمعاتهم، بدأ الشباب الفلسطيني يعبر عن الحاجة لإصلاح المؤسسات من أجل ملء الفراغ الذي خلفته الحركة الوطنية. وقد أشعل هذا عدداً من المبادرات السياسية والثقافية الواعدة والمتخطية للحدود القومية والتي أعادت تنظيم وإحياء المجتمعات المحلية، وفي نفس الوقت تسعى لإعادة إرساء الروابط بين المجتمعات الفلسطينية في جميع أرجاء العالم.

وفي عالم الفن والأدب، أشارت الكاتبة (أهداف سوف) إلى أن «فلسطينيو الشتات يحرضون بصفة مستمرة على توثيق روابطهم مع الوطن - والروابط بين الأجزاء المختلفة من الوطن - ومشكلين بذلك شراكات إيجابية كجزء من مجتمع أوسع من الفنانين والأدباء». وهذا الجيل من الفنانين الفلسطينيين يمثلون، وفقاً لأهداف سوف، «مجتمعاً بأكمله في حالة من الحراك والتعبئة الثقافية، (...) مع مشاركة الناس من كل قطاع في أنشطة يرونها ثقافية وتؤكد الهوية والمقاومة الفلسطينية»^١.

وقد حدث أيضاً جيشان في الرغبة للانتظام في كيان سياسي دولي بين الشباب الفلسطيني - وكان الجانب الأكبر من هذه الجهود مشجع ولكنه لم يزل مفتقداً للتنسيق والتمويل، وكان يبحث عن مكان يضرب فيه بجذوره سياسياً. فعلى سبيل المثال، نجحت شبكة الشباب الفلسطيني (PYN)^٢ في الربط بين الشباب الفلسطيني من كل قارة بشكل يتخطى الحدود الجغرافية - والسياسية. وتسعى هذه الشبكة في جوهرها لسد فجوة جوهرية تتمثل في كون فلسطينيي هذا الجيل لا يملكون وسيلة لتيسير التواصل وجهاً لوجه. فنحن ببساطة لا نعرف الأفراد الآخرين على الجهة الأخرى وكيف يستجيب كل منهم للتحديات الهائلة والمتمايزة التي تواجه مجتمعاتنا.

وعلاوة على ذلك، ومن خلال تمثيلهم لمجموعة مختلفة من المجتمعات حول العالم والانتفاع بأحدث الوسائل في الاتصال وأدوات التنظيم السياسي لصالحهم، يجسد أعضاء شبكة الشباب الفلسطيني نتيجة غير مقصودة، إن لم تكن منطوية على مفارقة، للفترة الطويلة التي قضوها في المنفى. فهم يسعون للوسائل التي من شأنها أن تحول نقاط ضعفهم - ممثلة في الانعزالية الفردية والاجتماعية التي يعانونها وانعدام الجنسية والتشرد - إلى نقاط قوة جماعية. ويحاول بعضهم - كمواطنين عالميين في الأصل - من خلال شبكة الشباب الفلسطيني أو غيرها من القنوات، لاستثمار تجاربهم التعليمية والثقافية والسياسية المختلفة من أجل ضمان استماع العالم لأصواتهم ومطالبهم في بلاد إقامتهم، على المسرح العالمي، وكذلك - وبدرجات متفاوتة - بين بقايا ما يشكل القيادة السياسية الفلسطينية.

وقد أصبحت عملية التنظيم السياسي المتمحورة حول تحقيق حقوق إنسانية ووطنية ملموسة والتي يقوم بها الشباب الفلسطيني مشوبة بشعور ملح بأن مثل هذا النشاط ينبغي أن يسعى للمحافظة على الإحساس المشترك بالهوية الفلسطينية وإعادة إحيائها. لقد أدى التمزق وطول فترة النزوح إلى تفاقم الانقسامات بين الأجيال والانقسامات الحزبية والدينية التي يجب أن يتم تخطيها. وبالرغم أنه نضال شاق وعسير، إلا أنه يعكس ما تصفه روزماري صايغ بقولها 'رفض السقوط في بر النسيان'.

ماهر بيطار (maherbitar@gmail.com) هو طالب ماجستير سابق في مركز الهجرة القسرية بمركز دراسات اللاجئين، وهو حالياً يدرس لنيل درجة الدكتوراة بقسم السياسة والعلاقات الدولية بجامعة أكسفورد، وهو يدرس أيضاً لنيل دكتوراة القانون بكلية جورج تاون للحقوق بالعاصمة الأمريكية واشنطن.

١. روزماري صايغ 'الفلسطينيون: من فلاحين إلى ثوريين في خلال ربع قرن' في روجر هيوكوك (تحرير) الزمان والمكان في فلسطين، بيروت، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (الدراسات المعاصرة، رقم ٣٥)، ٢٠٠٨.
http://ifpo.revues.org/index495.html
٢. أهداف سوف 'فكر وقاوم'
http://www.guardian.co.uk/artanddesign/2009/jun/13/art-theatre
www.pal-youth.org. ٣